الفصل ١٠
القيم والتقاليد والتفرّد

يتصرّف الأطفال الموهوبون أحيانًا بطرق طائشة، وغير لائقة، وغير مهذّبة. فمن الممكن أن يسألوا أسئلة مثل: «لماذا أنت أصلع؟»، أو «كم عمرك؟»، أو «كم وزنك؟»، حيث إن هذا النوع من الأسئلة لا يعدّ مهذبًا في مجتمع اليوم. ولا يتورّع بعض الأطفال الموهوبين عن تصحيح معلّمهم إذا اعتقدوا أنّه مخطئ. فهم قد يقولون مثلاً: "أنت مخطئ. كولومبس لم يكتشف أمريكا. في الحقيقة أن الفايكنغ Vikings هم من اكتشفوا أمريكا، وقد كان ذلك قبل عام ١٤٩٢ بسنوات طويلة".

يحدث بعض السلوك التساؤليّ؛ لأنّ الأطفال الموهوبين فضوليون، لكنّ خبرتهم تقيّدهم، فهم لم يعيشوا فترة كافية كي يدركوا أنّ الأسئلة الشخصيّة عن العمر والمظهر غير مهذبة. كما أنهم لم يتعلّموا العادات الاجتماعية بعد، وحتّى عندما نشرح لهم تلك العادات، فقد يعتقدون أنّ القوانين"غبيّة". ولا تبدو بعض الأعراف الاجتماعيّة مثل، ارتداء ملابس رسميّة لبعض المناسبات، وارتداء ملابس عاديّة لمناسبات أخرى منطقيّةً بالنسبة لهم. وقد يقع الأطفال الموهوبون في مشكلات بسبب حضورهم الذهنيّ السريع، ومنطقهم، وقدرتهم على عمل الأشياء بطرق عديدة. وهم يتصرّفون أحيانًا بطرق غير تقليديّة، وغريبة ومخالفة للعرْف. وينتهك بعضهم القوانين ببساطة تعبيرًا عن استقلاليّة ثائرة على التقاليد. وبالنسبة لهم فإنّ إخبارهم الأب أو المعلّم بأنّه مخطئ يعدّ كسرًا للتقاليد، حيث يقتضي العرْف أنّ الكبار يعرفون أكثر من الأطفال. ولكنّ، بما أن المعلومات الخطأ تسبب للأطفال الموهوبين عدم الارتياح وتزعجهم من أعماقهم، فإنهم يشعرون أنّه يجب أن يعلّقوا عليها؛ كي يقلّلوا من توتّرهم نتيجة هذا الموقف. إنّ ميل الأطفال الموهوبين إلى الكمال، وطبيعتهم الدقيقة، وتفسيرهم الحرفيّ للأحداث، واهتمامهم بالحقيقة والعدالة -خاصّة عند المتعلمين السمعيين التتابعيين– Auditory Sequential Learners - يثير عندهم ردّات أفعال قويّة. فقد يتمكّن الأطفال الأكبر سنًّا من التعامل مع هذه المواقف بدبلوماسيّة أكثر، وذلك بالتحدّث إلى المعلّم بعد انتهاء الدرس بدلاً من تحدّيه في أثنائه، ولكنّ تظل ردّة فعلهم شديدة، وحسّهم الأخلاقيّ، وحاجتهم إلى الحقيقة والإنصاف قويّة إلى درجة أنّهم يشعرون بضرورة مخاطبة الطرف الآخر حالاً.

إنّها إذًا طبيعة الأطفال الموهوبين في تحدّي التقاليد. لقد نُقِل عن عالم الفيزياء ألبرت أينشتاين Albert Einstein القول: "المهمّ ألاّ تتوقّف عن الأسئلة"، ولذلك فإن الطفل الموهوب قد يتّخذ هذا القول شعارًا له في بعض الأحيان، كما قد تتولّد لدى الأطفال الموهوبين الصغار عادةَ السؤال عن السبب وتكرار "لماذا؟" وعندما يكبر الأطفال الموهوبون، فإنهم يسارعون إلى إظهار المغلطات والتناقضات في العادات المختلفة. ونحن عادةً ما نقوّم الفرق الدقيق في آراء الموهوبين البالغين عندما يكتبون رسائل إلى ممثّلي الشعب ورؤساء تحرير الصحف اليومية. ونحن نُعجَب بالعلماء الذين يتحدّون المعتقدات التقليديّة السائدة، حيث جاءت بعض الاكتشافات المهمّة من علماء مبدعين تحرروا من التقاليد؛ لأنّهم وجدوا طريقة أفضل.

وعلى الرغم من أنّ التحدّي وانتهاك التقاليد تعدّان من طبيعة الأطفال الموهوبين، إلاّ أنّ نتائج الإقدام على ذلك عادةً ما تكون مؤلمة، إذ سرعان ما يتعلّم الأطفال الموهوبون أنّهم سيدفعون ثمن انتهاكم القوانين. وقد يتمثّل هذا الثمن في المضايقة، والسخرية، أو حتّى فقدان الأصدقاء. وعلى صعيد الواجب المدرسيّ حيث يتحدّى الطفل الموهوب أستاذه، فقد يكون الثمن حصوله على درجة متدنية، في حين، قد يسبّب التشكيك في التقاليد ا خلافًا على الصعيد العائليّ.

وأحيانًا قد يواجِه الأطفال الموهوبون والكبار العادات بأسلوب مقبول ومناسب.فقد يكتب طفل عمره عشر سنوات، مثلاً،إلى دائرة الدعاية في شركة كبرى؛ كي يناقش مدى دقة الحقائق في أحد الإعلانات التجارية. وقد يحاول أطفال موهوبون آخرون معالجة المواقف بطرق غير ملائمة مثل إثارة الجدل، أو إحداث عداء بين الأفراد. ويمكننا - بصفتنا راشدين يمتلكون الكثير من الخبرة في الحياة- أن نساعد الأطفال على فهم قيمة عادات وتقاليد معيّنة، وأحيانًا أسباب الحاجة إليها، ثمّ نناقشهم في متى وكيف يكون من المناسب تحدّي هذه التقاليد وانتهاكها.

ولكن، لماذا ننزعج كثيرًا عندما يتحدّى أطفالنا عاداتنا وتقاليدنا؟ عادة ما يكون السبب لأنّ تقاليدنا تعكس قيمنا، أو لأنّ من شأن ذلك التحدّي أن يغير الوضع الراهن.

قيمة العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعيّة

يبني كلّ مجتمع ثقافته على تقاليد وقوانين متعلّقة بالكيفيّة التّي يتحدّث الناس فيها، ويتصرّفون، ويفكّرون. تعدّ هذه العادات الأساس الذي يجعل الثقافات، والمجتمعات، والعائلات تتماسك مع بعضها بعضًا. ويتشارك الناس عمومًا في بعض التقاليد مثل التعبير عن حبّ الوطن والافتخار به، والتصويت، وحريّة التعبير. وثمّة تقاليد أخرى مثل، الاحتفالات الدينيّة، أو الأهداف التعليميّة، فتعدّ شخصيّة جدًّا، وهذه يُعتنَى بها في العائلات أو المؤسّسات الدينيّة، أو شرائح صغيرة في المجتمع. وهناك بعض العادات مثل، قول «لو سمحت»، أو «شكرًا»، وهي سلوكات تدّل على الأخلاق، والتعامل الاجتماعيّ الحسن، في حين نكتسب عادات أخرى مثل، اللهجات، أو أنماط الحديث من خلال معاشرتنا للآخرين وملاحظتهم.

تساعدنا التقاليد على الشعور بالارتباط بالآخرين بأمان، وتزوّدنا ببنية لحياتنا حتى نعرف ما نتوقّعه من الآخرين، وما يتوقّعه الآخرون منّا. على سبيل المثال، يذهب الأطفال في معظم الثقافات إلى المدرسة لعدد متوقّع من السنوات. وتشير عادات الخطوبة والزواج إلى كيفية تشكيل العائلات، أما التقاليد الدينيّة، والشعائر، والمواثيق الأخلاقيّة والقوانين المكتوبة كلّها فتساعدنا على معرفة كيف نتصرّف في مواقف معيّنة. فنحن نقف عند الإشارة الحمراء، ونعطي الأولويّة لسيّارة الإسعاف، ونصوّت بناء على قانون الانتخاب، وندفع الضرائب حسب القوانين التشريعيّة.

تقع معظم التقاليد في مكان ما بين العادة والهدف المدروس. وعلى الرغم من أنّ هذه التقاليد قد خدمت هدفًا ما في وقت من الأوقات، إلاّ أنّها الآن باتت بقايا عصر قديم. كانت الملابس البيضاء تُلبس في الماضي في فصل الصيف لأنّها تزوّدنا بالبرودة.. ثمّ تُستبدل بملابس داكنة مع تغيّر الفصول

وانخفاض درجة الحرارة. وحتى الآن ما زالت العادة تقضي بأن لا يرتدي الأمريكيون الملابس البيضاء بعد عيد العمال الذي تحتفل به الولايات المتحدة في أول يوم اثنين من شهر سبتمبر. لكن هناك من يدعو إلى كسر هذه القاعدة نظرًا لتوافر التدفئة والتبريد في البيوت وأماكن العمل، كما أن هناك مصانع تنتج ملابس بيضاء سميكة تقي من البرد.

لقد انتقلت بعض العادات من جيل إلى جيل عَبْر المجتمع، وقد لا يستطيع الناس تذكّر كيف، ولماذا نشأت هذه التقاليد، مثل عادةُ إطفاء الشمع في حفلات أعياد الميلاد، والزغاريد في الأفراح، وتصفيق الجمهور للخطباء الذين يعجبون بهم وغيرها.

وسواء أكانت قديمة أم حديثة، أو مشكوك بها أو متقبّلة، فقد تصبح بعض التقاليد عادات حياتنا التّي تعبّر عن قيمنا، وتعطي توقّعًا مريحًا لنا وللآخرين. لذلك؛ فإنّ التقاليد ترتبط ارتباطًا قويًّا بمشاعرنا، وأحاسيسنا، ولهذا فنحن نكره عندما يقوم أحد ما بتحدّيها، أو كسرها. وغالبًا ما يصاب الأطفال الموهوبون بالدهشة من ردّة الفعل العاطفيّة التّي يتلقوْنها من الآخرين، عندما يناقش هؤلاء الأطفال «منطقيًّا» التقاليد السائدة. وقد يفسّر البالغون الآخرون هذه التحدّيات على أنّها تعبير عن قلّة احترام للعائلة. مثلاً، تتّبع بعض العائلات تقليدًا يوجب على الطفل أن يبقى صامتًا إلاّ إذا طلب شخص كبير منه الحديث، ويوصف بالفظاظة إن خالف تلك التعليمات. ولهذا قد يعدّ الطفل وقحًا لو سأل شخصًا أكبر منه: «لماذا أسنانك صفراء»؟

تمثّل معظم العادات والتقاليد مثل، (رعاية الوالدين، وكفالة اليتيم، وإغاثة الضعيف واحترام الجار وغيرها) القيمَ التّي نأمل أن تنتقل إلى الجيل القادم. ويعدّ انبعاث العادة القديمة في كتابة الوصيّة الأخلاقيّة[١] مثالاً جيّدًا على رغبة الناس في نقل قيم ومعتقدات معيّنة إلى الأجيال القادمة.

وسوف يناقش معظم الأطفال، خاصّة المراهقين منهم، من وقت إلى آخر على الأقلّ، الحاجة إلى الالتزام بالعادات والتقاليد المختلفة مستخدمين تعليقات، منها على سبيل المثال، «لماذا عليّ أن ألبس زيًّا رسميًّا في حفلة التخرّج؟» ولأن الأطفال الموهوبين يملكون القدرة على رؤية التناقضات وغياب المنطق، فمن الممكن أنهم سيكونون الأكثر انتقادًا وتحديًا للطقوس والتقاليد التّي تبدو لهم غير منطقيّة، أو غبية أو عشوائيّة.. فقد يتساءلون مثلاً، «لماذا تحمل النساء حقائب صغيرة ويضعن أحمر شفاه؟». «لماذا يقوم الرجال عادة بالأعمال التي تتطلب قوة عضلية بينما تقوم النساء بأعمال المنزل؟»، «لماذا لا يستطيع الأطفال تصحيح الكبار في الوقت الذي يعرفون أنّهم مخطئون؟».

إنّنا نكافح كي نحدِث توازنًا في حياتنا، ويتعيّن على أطفالنا الموهوبين عمل الشيء نفسه. فمن جهة، إننا نريدهم أن يكونوا مبدعين؛ حيث يؤدّي الإبداع إلى الابتكار والتقدّم. ومن جهة أخرى، نريدهم أن يحترموا التقاليد. يمكن أن يسبّب الأطفال الموهوبون إزعاجًا نتيجة تساؤلاتهم التّي يصعب على الكبار الإجابة عنها أحيانًا. وهم نادرًا ما يقتنعون بأجوبة مثل «هكذا تعوّدنا»، بل يريدون معرفة الأسباب، ثمّ يناقشون تلك الأسباب. ولاشك أن الآباء يستطيعون مساعدة أبنائهم الموهوبين على تلمّس الأسباب، وتحقيق التوازن، ومن ثمّ قبول التقاليد التّي شككوا فيها في البداية.

أنواع التقاليد

تسير سلوكاتنا وتعاملاتنا اليوميّة كلّها على هدي التقاليد والعادات الشخصيّة والاجتماعيّة الكثيرة التّي تشكّل أساس النظام الاجتماعيّ. ونجد في أي مجتمع متحضّر أن القوانين هي التي تحكم القيم المشتركة، بينما تبني المعتقدات الدينيّة، والمواثيق الأخلاقيّة التوقّعات الأخلاقية العامّة. وتزوّد هذه القوانين والمعتقدات والمواثيق المجتمع بالبنية الأساسيّة، والنظام، والتماسك، ويؤدي غيابها إلى انتشار الفوضى وتقلّب الأحوال.

يجلب المجتمع النظر إلى قيمه المشتركة بطرق عديدة، منها مثلاً، الاجتماعات الرسميّة، وحفلات التخريج، وحفلات الزواج، وتشييع الجنازات، واجتماعات مجالس الإدارة، وجلسات المحاكم ....، وتذكّر الطقوس المكتوبة الناس بأهميّة النظام، والقدرة على استشراف المستقبل، أما الطرق الرسميّة فتدلّ على الطريقة «السليمة» لعمل الأشياء.

وتعمل المجموعات في المجتمع (النوادي، الشركات، المجموعات الدينيّة أو الأخلاقيّة، أو حتّى الفرق الرياضيّة) على تأسيس تقاليدها لإبراز قيمها العامّة، حيث تطوّر تلك المجموعات عادات وطقوسًا تربط بين أولئك الذين يشتركون بقيم ومعتقدات متماثلة. وترتبط الكثير من التقاليد بالأعمال والمهن، فنحن على سبيل المثال قد نعطي مالاً إضافيًّا (بقشيشًا) للنادل، أو الحلاّق، أو سائق سيّارة الأجرة، وليس للطبيب أو سمسار البورصة. كما أننا قد نصافح شريك عمل أو زبونًا جديدًا، ونحن في ذلك نكون مدفوعين بالتقاليد التّي تقرّر ما يتوقّعه منّا الآخرون، وتوجّهنا إلى السلوك المقبول في معظم الأحيان، في حين لن نستطيع دونها أن نعرف كيف نتصرّف.

وتنحصر بعض العادات عند مجموعة صغيرة فقط، مثل جالية، أو مدرسة. ومع أن هذه العادات تكاد لا تلاحظ من الأطفال، إلا أنها في غاية الأهميّة، حيث تتضمّن اللغة، والملابس، والسلوكات رموزًا ودلالات تدلّ على انتماء الفرد من عدمه إلى مجموعة بعينها. فعلى سبيل المثال، إنْ لم تواكب إحدى المراهقات آخر صيحات الموضة فإنّ مجموعات بعينها سوف تتجنبها.

وهناك بعض العادات التي تُعنى بمراحل انتقالية Rights of Passage وتشمل مراسيم صغيرة ضمن العائلة- مثل أول يوم لذهاب الطفل إلى المدرسة، أو حفل عيد ميلاد إيذانًا بدخول مرحلة عُمرية جديدة، أو حفل تخرّج، أو الحصول على رخصة قيادة، أو بلوغ سن التصويت في الانتخابات[٢]. وتشكّل هذه التقاليد محطّات مهمّة في حياة الشخص، وتعطيها معنىً عائليًا أو ثقافيًا.

إضافة إلى ذلك فإنّ بعض العائلات تتبع تقاليد خاصة بسلوك تنشئة الأطفال، وأساليب الضبط ، والاحتفالات، وتوقّعات الإنجاز، أو السلوكات الأخرى. فمن المحتمل مثلاً أن تزجر أمّ طفلها بعبارة: «نحن لا نفعل هذا الشيء في عائلتنا، تذكّر أصلك!»، وقد يقول الآباء لأطفالهم: «نحن نعتقد- في عائلتنا- أنّ التعليم قيّم جدًّا»، أو «نحن نعتقد أنّ التسامح مع معتقدات الآخرين أمرٌ مهمّ.»

إنّنا نتعلّم في عائلاتنا العادات اليوميّة التّي نادرًا ما تلفت أنظارنا. وعلى الرغم من أنّ بعض العادات العائليّة يتّم توضيحها، وحتّى كتابتها، إلاّ أنّ معظمها يعدّ قوانين غير مكتوبة نعلّمها لأطفالنا

أحيانًا بمنتهى الكياسة. تمرّر قوانين السلوك «المناسب» شفهيًا، إذ لم يعد الأطفال يدرسون كتب آداب التعامل التّي تخبرهم بما يجب أن يلبس الشخص في مناسبات معيّنة، أو متّى يصافح، أو متّى يقف، أو لماذا لا يجوز توجيه الأسئلة الشخصيّة مثل، كم تكسب من النقود؟ أو كم عمرك؟ أو هل أنت متزوّج أم لا؟ كما أنّ أدوار العائلة غير محدّدة. ففي بعض العائلات مثلاً، الأمّ هي التي تتسوّق، وتخطّط للوجبات، وتطبخ، بينما يتولّى الأب مهامّ تصليح أغراض البيت، ويعتني بالسيّارة. وقد تفرض القوانين غير المكتوبة التّي تنتقل عَبْر الأجيال وجوب احترام كبار السنّ، وعدم تحدّيهم.

وهناك عادات كثيرة، لا سيّما التقاليد الخاصّة بالعائلات، والمجموعات الصغيرة، غير مترابطة منطقيًّا، وعشوائيّة، ولا يستطيع الإنسان أن يفهم قوانين أسلوب الحياة بالمنطق البسيط، بل يتعيّن عليه أن يعيش مع الآخرين ويشاهدهم عَبْر فترات طويلة من الزمن؛ كي يدرس التركيبة المعقّدة للقوانين التّي شملتها تلك العادات. لقد جاءت هذه الأعراف أحيانًا بمحض الصدفة، وأحيانًا بصورة مدروسة، ولا زالت تمرّر إلى الأجيال على الرغم من طبيعتها العشوائيّة.

التقاليد يمكن أن تولّد الصراع

يمكن أن تؤدّي التقاليد إلى المشاكل، وتُفضي أحيانًا إلى الصراعات. وكما تقول الكاتبة الساخرة إرما بومبيك Erma Bombeck في كتابها: "العائلة، الروابط التي توثّق... وتكمّم" Family: The Ties that Bind... and Gag!: «يمكن أن تكون العائلة مترابطة إلى حد كبير في توقّعات أفرادها من بعضهم بعضًا، لدرجة أن عالم الطفل يكون مقيّد بإفراط، ولا يُمنح الأطفال فرصًا لتطوير إمكاناتهم»[٣]. فقد تُقيّد بعض العائلات أو المجموعات الأخرى بتقاليد ضارّة أو غير عمليّة. فمثلاً، قد يوجد تقليد متعصّب وضيّق الأفق يتعلّق بأسرار العائلة. أو قد يصرّ الآباء على أن يتّبع الأطفال مجموعة من القوانين التي لا يلتزم بها الآباء أنفسهم. وقد أشار أكثر من طفل موهوب إلى ذلك بالقول، «لماذا عليّ أن أشارك في ذلك النشاط الدينيّ، فأنت نفسك لا تراعي أيّ عادات دينيّة!».

من المحتمل أن يشكّك الأطفال الموهوبون في التقاليد ويتحدّونها، إلاّ إذا كانت مفيدة، وذات علاقة بهم شخصيًّا. فتعدّ كلمة (لماذا) الكلمة المفضلة لدى كثير من الأطفال الموهوبين. ويساعدهم التشكيك في تناقض التقاليد- على الرغم من أنّ هذا التشكيك قد يزعجنا- على تطوير عالمهم الشخصيّ، ويقرّر مكانهم الملائم في هذا العالم. فعندما تبدو القوانين أو التقاليد غير متّسقة، أو غير قابلة للتطبيق، أو غير مناسبة، أو غير معقولة، فهناك احتمال كبير للتشكيك بها.

تحدّي التقاليد

يفهم الأطفال الأذكياء الخيارات البديلة في وقت مبكّر من الحياة، ويبدأ كثيرون منهم بإدراك أنّهم ليسوا بحاجة إلى أن يُضبَطوا بالتقاليد التّي يسترشد بها الآخرون، ويشرعون بتحدّي- أو حتّى انتهاك- القوانين والعادات والتقاليد لأسباب متعدّدة. وعادةً ما يكون حكمهم عليها ملازمًا لعمرهم الزمنيّ، ومتأخّرًا عن عمرهم العقليّ. فهم ببساطة لا يفهمون القوانين؛ لأنّها قد لا تكون في بعض

الأحيان منطقيّة بالنسبة لهم. قد يسأل طفل، مثلاً، أشخاصًا في المصعد عن وزنهم، وعندما يؤنّبه والده، فإنّه يقول له: «لكنّ اللافتة تحدّد الوزن الأقصى المسموح به في المصعد». إن هذا الطفل يبدو منطقيًا، ومهتمًّا فعلاً بمصلحة الآخرين لأن المصعد قد يتعطّل إذا ما زاد الوزن عن الحد المسموح به. أما القاعدة الاجتماعيّة التّي تقول إنّ وزن الشخص مسألة شخصيّة خاصّة به لا يحق لأحد أن يتحدّث عنها في العلن، فلا علاقة لها بالمنطق، وإنما تتعلق بالأحاسيس والتقاليد. إن العمر العقليّ للطفل يسمح له بتحديد المشكلة، لكنّ انعدام الخبرة، وعدم التقدير الجيّد للأمور يوجِد الصراع، ويضع الأب في موقف محرج دون قصد. يتعيّن على الأب استنادًا إلى هذا الفهم أن يتفادى الصراع، ويتجنّب الإحراج فيوضّح للطفل أنّ الأمور ستكون أفضل لو أنّه قدّر بصمت وزن كلّ شخص، ووصل إلى المجموع الذي يريده. أما إذا اعتبر الأب أن الطفل غير مؤدّب ولا يحترم الآخرين، فإن الصراع سوف ينشب بينهما.

ينتهك الأطفال الموهوبون التقاليد من حين إلى آخر بسبب حبّهم للاستطلاع أو بحثًا عن الإثارة دون التريّث للتفكير في العواقب المحتملة. وهم قد يطرحون أسئلة مثل، «كيف ستكون الأمور إذا ما تعاملنا مع عائلة تتّبع نمط حياة وقيم مختلفة عمّا نتّبعه؟» أو أسئلة أكثر خطورة مثل، «كيف سيكون شعوري لو جرّبت هذا العقار مرّة واحدة فقط؟ إنّني امتلك ما يكفي من الذكاء لإيقافه بعد تجربته مرّة واحدة»، أو»ما مدى صعوبة أن أسرق شيئًا واحدًا؟ فلا يمكن القبض عليّ متلبسًا».

وفي معظم الأحيان تبرز المواقف التّي تحثّ الأطفال على تحدّي التقاليد من مثاليّتهم، خاصّة عندما تبدو تلك التقاليد غير منطقيّة، أو عندما تتعارض مع مقاييسهم الأخلاقيّة. يمكن مثلاً أن يستنتج طفل ما أنّنا «نسمح للأشياء الماديّة بالتحكّم في حياتنا بشكل كبير، وأنّنا يجب أن نعيش ببساطة أكثر»، أو»يجب أن نتوقّف عن أكل اللحوم؛ لأنّ ذلك يتسبّب في قتل كائنات أخرى، بالإضافة إلى أنّ الإفراط في الأكل مضرٌّ بالصحة والبيئة على حدٍّ سواء».

يكون الأطفال الموهوبون المثاليّون، حتّى في عمر مبكّر، مستعدّين ليتخلّوا عن التوقّع المريح للوضع الراهن لكي يبحثوا عن طرق لتحسين العيش والحياة. إنهم يؤمنون بإمكانيّة التغيّر، ولهذا فقد يرغبون في مساعدة المشرّدين، أو أن يكون أفراد عائلاتهم نباتيّين، أو أن تشتري العائلة سيّارة لا تلوّث البيئة. وقد يصمّمون مشروعًا يجمعون فيه المال لقضية معيّنة.

وعندما تلتقي الانفعالات القويّة المرتبطة بالتقاليد مع شدّة الطفل الموهوب، فمن الممكن أن يرتفع سقف التحدّيات عند الأطفال الموهوبين فتتحوّل إلى مواقف معرقِلة تهدّد بتمزيق العائلة. ومن المحتمل أن يحدث هذا عندما لا تتسامح العائلة كثيرًا مع تقاليد الآخرين. فعلى سبيل المثال، وجد كثير من الآباء أنفسهم غير مرتاحين في أثناء حقبة الحقوق المدنيّة في أقصى جنوب الولايات المتحدة، عندما كان أطفالهم المثاليّون يحاولون تغيير العادات العنصرية.

نحن نريد بالتأكيد أن يكون أطفالنا الموهوبون بارعين في حلّ المشكلات؛ لأنّنا نحتاج إلى حلول جديدة لمشكلات مهمّة لا تواجه بلدنا فحسب، بل العالم كلّه. لكنّ التشكيك والتحدي المتواصل، وانتهاك بعض الأطفال الموهوبين التقاليد يمكن أن يؤدّي إلى إزعاج بعض أفراد العائلة، والمعلّمين، وآخرين من الذين يعدّون هذا السلوك محرجًا وغير مريح، وحتّى مهدّدًا لاعتقاداتهم، وطرق حياتهم.

ويمكن أن يكون الأصرار على تحدّي القوانين، أو التشكيك لغرض التساؤل فقط، أو المخالفة، طريقة نبيلة في البحث عن الحقيقة. قد يجد آباء الأولاد المراهقين الموهوبين صعوبة بالغة في السماح لأولادهم بتسريح شعورهم مثل ذنب الفرس، أو وضع الأقراط في آذانهم، في حين يشعر آباء الفتيات باليأس عندما يرون أنّ فتياتهم اللواتي كنّ جذّابات معتنيات بأنفسهنّ، أصبحن يرتدين بنطال «جينز» ضيّقًا وممزّقًا، وقميصًا ضيّقًا في الأعلى. وقد يبدي الآباء انزعاجهم من وجهات نظر أطفالهم المضادّة للمؤسّسات القائمة، وعندما يقترب الأطفال الموهوبون من سنّ المراهقة، فمن المحتمل أكثر ضيقًا بالتناقضات والنفاق الذي يرونه حولهم.

التقدّم قد يأتي من تحدّي التقاليد

على الرغم من أنّ تحدّي التقاليد السائدة يكون له ثمنه الباهظ معظم الأحيان، إلاّ أنّه يجب التخلّي عن كثير منها، أو على الأقلّ تعديلها؛ كي يصبح عالمنا مكانًا أفضل، ونتمكّن من حماية بيئتنا، والارتقاء بأساليب الحياة، وإيجاد علاجات أفضل للأمراض. على سبيل المثال، لقد واجهت النظريّة القائلة أن الأرض كروية وليست منبسطة معارضة شديدة لأنها اصطدمت بالأفكار التقليدية. وفي الفترة الأخيرة، تحوّلت المجموعات الغذائيّة الأربع، التي كانت تعدّ في الماضي دليلاً على الطعام الصحيّ، لما يُعرف اليوم بالهرم الغذائيّ. واكتسبت السيّارات الهجينة شعبيّة على حساب سيّارات البنزين. ولا شك أن هذه التغيّرات كلّها كان لها ثمن، وعانى الذين أوجدوها من مضايقات، إمّا شخصيّة، أو مهنيّة. يرتبط التقدّم، معظم الأحيان، بوجوب مخالفة التقاليد، والعادات، والمعتقدات. غير أنّه يصعب على المرء أن يتخلّى عن التقاليد القديمة بسهولة، حتّى وإنْ أدرك ضرورة تركها، إذ لا زال معظم الناس مثلاً، يذهبون إلى أعمالهم بسيّاراتهم - سيّارة واحدة لكلّ شخص- بدلاً من استعمال المواصلات العامّة.

وقد يزعجنا تجاهل الأطفال، أو معارضتهم تقاليد العائلة أو المجتمع؛ إذ نعدّه إهانة لسلطتنا وحكمتنا. وقد نكون محقّين في ذلك في بعض الأحيان، لكنّنا من جهة أخرى، عشنا فترة طويلة رأينا فيها كيف تغيّرت تقاليد كثيرة، بما في ذلك طول الشعر وتصاميم الملابس، ونعرف تمامًا أنّ التغيّرات ستأتي لا محالة مع كلّ جيل جديد.

غالبًا ما يكون الأطفال الموهوبون على صواب - بحكم قدرتهم الاستثنائيّة على التحليل - عندما يقولون إنّ تقليدًا معيّنا يجب أن يواجه، أو حتّى أن يعارض، (طبعًا سيكون ذلك مقبولاً إن لم يكن هذا التقليد من التقاليد التي نعتز بها ونرعاها). في سبعينيّات القرن الماضي مثلاً، بدأت الكثير من الأمّهات الصغيرات العودة إلى العمل، في حين كان الآباء يعتقدون بضرورة بقائهنّ في البيت مع أطفالهن- حيث كان ذلك التقليد السائد حتّى ذلك الحين. ولا ريب أن عدم الإذعان للتقاليد، أو تحديها، غالبًا ما يقلق الناس ويزعجهم ويجعلهم يتساءلون: «لماذا يُربكون الوضع الراهن؟ إلى أين سيوصلنا ذلك؟ نحن نفعله دائمًا على هذا النحو». هذا ما يتعلّق بالكبار الذين يكتفون بالإعراب عن أسفهم، أما عندما يقدّر الأطفال الموهوبون المثاليّون كيف يمكن أن تكون الأشياء، فإنّهم يحاولون معظم الأحيان تطبيق مُثُلهم. فلماذا ننزعج؟ أليس ذلك ما نريدهم أن يفعلوه؟ ربما يكون السبب هو أنّ التغيير قد يحدث بشكل مفاجئ أحيانًا، أو أسرع ممّا نحبّ.

وقد يكون تحدّي التقاليد الاجتماعيّة مفيدًا، حتّى وإن أحزنت هذه التغيّرات أناسًا آخرين، خاصّة أولئك الذين لا يلمسون الفوائد مباشرة. على سبيل المثال، كان ثمن إيقاف العبوديّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة حربًا أهليّة، وحصلت النساء على حقّ التصويت بعد سنوات عديدة، واستغرق الأمريكيّون الأفارقة وقتًا أطول كي يحصلوا على ذلك الحقّ، ويدخلوا المدارس العامّة. وعلى الرغم من الإنجاز الكبير الذي تحقّق في المساواة العرقيّة والجنسيّة، إلاّ أنّ هناك متّسعًا لمزيد من التحسينات في هذه المجالات.

ومن المؤكد أن العالم أصبح أفضل؛ لأنّ أناسًا مبدعين، ومهتمّين، وشجعانًا تحدّوا التقاليد. لقد تحدّت روزا باركس (1913 – 2005) Rosa Parks التمييز بين السود والبيض داخل الحافلات في جنوب الولايات المتحدة، فحققّت إنجازات مهمّة في المساواة العرقيّة. وتحدّى داعية الحقوق المدنية "مارتن لوثر كنج" (1929 –1968) Martin Luther King, Jr., الكثير من المعتقدات التقليديّة، والافتراضات فيما يختّص بالأمريكيين الأفارقة، فأحدث تغيّرات إيجابيّة في الحقوق المدنيّة رغم أن دفع حياته ثمنًا لذلك. وفي بريطانيا، تحدّى جوزيف ليستر (1827 – 1912) Joseph Lister الفكرة التّي تزعم أنّ الأمراض لا تنتشر في المستشفيات، فطوّر إجراءات للتعقيم، وتحدّى الأخوان رايت The Wright Brothers الفكرة التقليديّة التي كانت تقول أنّ الإنسان لا يستطيع الطيران بآلات أثقل من الهواء. وتحدّت "إيميليا ايرهارت" (1897- 1937) Amelia Earhart فكرة أنّ المرأة لا تستطيع الطيران وكانت أول رائدة في هذا المجال، مع أنها فُقدت في إحدى الطلعات الجوية.

لقد تقدّمت مجتمعاتنا في معظم المجالات لأنّ أحدهم تحدّى معتقدًا ما، وكان مصرًّا على إثبات خطأ ذلك المعتقد. على سبيل المثال، نظّمت فتاة موهوبة في المرحلة المتوسطة إضرابًا في إحدى المدارس الأمريكية للاحتجاج على عدم المساواة في التمويل والفرص المتاحة للأولاد والبنات في الأنشطة الرياضية التي تجري بعد انتهاء الدوام المدرسي. لقد نجحت تلك الطالبة في إقناع الطلاب الآخرين بمقاطعة الدروس، وبالخروج من غرفة الطعام إلى ملعب كرة القدم، والجلوس هناك في احتجاج صامت إلى أن جاء المدير للحديث إليهم حول المشكلة، وتوصل معهم إلى اقتراح يقدّم إلى مجلس المدرسة بزيادة المبالغ الماليّة المخصصّة لرياضة البنات، وصوّت المجلس لصالح ذلك الاقتراح. ومما لا شكّ فيه أن كثيرين قد انزعجوا من تحدّي السلطة، على الرغم من أنّ القضية كانت عادلة. غير أنّ عدم راحة الآخرين لا تعني بالضرورة أن يتخلّى الناس عن قناعاتهم، ولا بدّ من الاعتراف أنّ التقدّم المعرفيّ، والاجتماعيّ لم يكن ليحصل لولا تحدّي التقاليد.

التقاليد، والقيم، والتطوّر الأخلاقيّ

ترتبط التقاليد بقيمنا بصورة وثيقة، وغالبًا ما تكون طريقة للتعبير عن هذه القيم. لقد مرّ وقت كانت فيه المحلاّت التجاريّة في الولايات المتحدة تغلق أبوابها في أيّام الأحد؛ كي يتمكن الجميع من قضاء يوم من الراحة. لكن هذا التقليد توقف عندما اعتقد كثير من الناس أنّ يوم الأحد يمكن أن يكون يوم تسوّق. وقد انقسم الناس حسب هذا التغيّر؛ قسم يفضّلونه، وقسم آخر يتمنون أن يظل يوم الأحد

ذلك اليوم التقليديّ الهادئ بلا عمل في المحلاّت التجاريّة. وقد مثّلت الفروقات الحقيقيّة في الآراء حول ما هو مهم قيمًا مختلفة.

طوّر عالم النفس «لورنس كولبرغ» Lawrence Kohlberg بعد دراسة النمو والتطوّر الإنسانيّ نظريّة التطوّر الأخلاقيّ The Theory of Moral Development التي ترتبط بقوّة بفكرة التقاليد والقيم. وقد ساعدتنا نظريّته على فهم الأطفال الموهوبين، وإدراك الفروقات بينهم وبين الأطفال الآخرين، حيث يتحرّك الأطفال الموهوبون بشكل أسرع في أثناء معظم مراحل التطوّر العقليّ، وكذلك في أثناء "مراحل التطوّر الأخلاقي" [٤]. انظر جدول(٨) لاحقًا، الذي يلخّص مراحل التطور الأخلاقي.

تقول نظرية التطور هذه أنه عندما يبلغ أحدنا مرحلة جديدة فإنّه يترك المرحلة السابقة وراءه، فتتغيّر حياة الطفل أو الكبير تَبَعًا لذلك. ويعني بلوغ المرحلة الجديدة إعادة ترتيب حياة المرء بطرق، وتحدّيات، وفرص جديدة. وقد يفقد المرء راحته مع أحد التغيّرات، أو قد يحصل عليها في تغيّر آخر.

« تبدأ المراحل الأوليّة من هذه النظرية، والمسمّاة «التمرّد الأنانيّ» Selfish Disobedience حسب "كولبرغ" ، من الطبيعة الأنانيّة لمعظم الأطفال الصغار، حيث يعتقد الطفل الصغير أنّه مركز الكون، وأنّ الكون كلّه يدور حوله، وتكون لديه اعتقادات تفكير سحرية فيما يتعلّق بقدراته في العالم. ويؤكّد "كولبرغ" أنّ الناس في هذه المراحل المبكرة يتّبعون القوانين لأسباب أنانيّة؛ كي يتجنّبوا العواقب، أو ليحصلوا على مكافآت إيجابيّة من الآخرين. ويصف "سيجموند فرويد" Sigmund Freud "مبدأ اللّذة" Pleasure Principle فيقول: "إنّ الشخص يتصرّف أصلاً ليحصل على اللّذة، ويتجنّب الألم بالطريقة نفسها". ويعدّ سؤال "ماذا يحمل لي هذا الشيء ؟" القوّة الدافعة في هذه المرحلة من التطوّر.

وتتضمّن المراحل الوسطى من التطوّر الأخلاقيّ الانصياع للتقاليد التّي اتّفق عليها معظم الناس في ثقافة معيّنة. ويجد أغلب الناس أنفسهم في هذه المرحلة يسعون وراء الطاعة كهدف بحدّ ذاتها، ويتجنبون الرفض الاجتماعيّ. وفي هذه المرحلة أيضًا يتّبع الأفراد القوانين دون سؤال، وثمّة القليل فقط، إن وجد، من الاستثناءات للأعراف التقليديّة التّي يمارسها معظم الناس.

أما المراحل العليا من التطوّر الأخلاقيّ فهي المراحل التي يبدأ فيها الناس التشكيك في الأعراف والتقاليد ومناقشتها باستمرار وشمولية. إنّهم يعرفون القواعد والقوانين، لكنّهم يأخذون في الحسبان المعايير الشخصيّة، والأخلاقيّة التّي قد تتعارض مع العادات. ثمّ تتحدّ المبادئ الأخلاقيّة العامّة في المستوى السادس (الأعلى). تدرس الأفكار النظريّة والاحتمالات بعناية، ويبدأ التفكّر والتأمل في تأثير أعمال الشخص على الإنسانيّة والعالم، وحتّى على الكون. ويخلص "كولبرغ" إلى أنّ (١٠٪) فقط من الناس يبلغون المرحلتين الأخيرتين من التطور الأخلاقي، وأولئك هم القادة والمبدعون الذين يتحدَّون التقاليد الاجتماعيّة ويغيّرونها، ويمهّدون لطرق جديدة أفضل[٥].

جدول(٨): مراحل التطوّر الأخلاقيّ[٦]

مرحلة وقضية الاهتمام الأخلاقي

التمرّد الأنانيّ (يوجد غالبًا عند طلاب المرحلة الابتدائيّة):

١. معيار الجيّد والسيّئ هو كل ما يجنّب العقوبة: نحن نطيع القوانين؛ لأنّ شخصًا مسئولاً طلب ذلك؛ ولأنّنا نريد أن نتجنّب العقوبة.

٢. نحن نعمل أشياء للآخرين؛ لأنّ ذلك يدفع الآخرين لعمل أشياء لنا في المقابل، فنحن نعمل وفقًا لمصلحتنا حتّى نكافأ. تعطى العدالة، والتبادليّة، والتقاسم المتساوي قدْرها، لا لأنّها صحيحة، ولكن لأنّ الآخرين سيعملون ذلك في المقابل.

إتباع التقاليد (منتشر في المجتمع كلّه):

٣. السلوك الجيّد هو ما يسرّ الآخرين في العائلة والمجتمع. يعدّ أيّ شيء يسرّ معظم الناس صحيحًا أخلاقيًّا، ونحن نعمل الأشياء للحصول على استحسان الآخرين. فإتباع التقاليد يحظى بتقدير عالٍ.

٤. يجري استدخال واستبطانInternalization التقاليد واعتبارها قواعد وقوانين ثابتة "وصحيحة": من الأهميّة بمكان الحفاظ على النظام الاجتماعيّ، وسلطة الجماعة، وقوانين وقواعد المجتمع، لذواتها فقط، وتجب طاعة تلك القوانين.

المبادئ الأخلاقيّة ما بعد اتّباع القوانين (نادرًا ما يبلغها معظم الكبار):

٥. القيم الأخلاقيّة هي مبادئ تسمو فوق مستوى السلطة البسيطة، أو رأي جماعة ما. يهتمّ الشخص بالمبادئ والقوانين، والإجراءات التّي توفّر العدل للجميع، حيث يوجد حسّ قويّ بالمسئوليّة الشخصيّة والضمير، والاهتمام بمصلحة الآخرين، وحماية الحقوق الفردية في أثناء البحث عن رأي جماعيّ.

٦. يهتمّ الشخص بمصلحة البشر كلّهم، والمبادئ الأخلاقيّة العالميّة والأخلاقيّة النظريّة. ويتجاوز هذا وجهات النظر التقليديّة، ويؤكّد على الثبات والشموليّة في البحث عن مبادئ كاملة للعدالة ، والتبادليّة، والمساواة، والاحترام.

اقتراحات عمليّة

اعرف الثمن: قد يكون أهمّ شيء يمكن أن يفعله الآباء لأطفالهم الموهوبين العنيدين بما يحملونه من أفكار وآراء، هو مساعدتهم على إدراك نسبة التكلفة والفائدة Cost to Benefit Ratio لبعض السلوكات. فمما لا شكّ فيه أنّ تحدّي التقاليد له فوائد، ولكنّه أيضًا له تكلفة. وهذه التكلفة ليست شخصيّة فقط، إنّما قد تكون مهنيّة، أو اجتماعية. وغالبًا ما يحتاج الأطفال الموهوبون إلى الحريّة الشخصيّة؛ كي يجرّبوا ويعايشوا تكلفة انتهاك التقاليد، حتّى وإن أزعج ذلك الآباء والآخرين. فإذا اختار الطفل عدم الاستحمام يوميًّا، مثلاً، فإنّ ذلك سيكلّفه ثمنًا واضحًا وهو تأثّر علاقته بالآخرين على الأرجح. كما يعطي المظهر الخارجي، مثل الشعر الطويل، والوشم البارز، ونوع اللباس صورة غير تقليديّة لهذا المراهق يمكن أن لا تساعده في الحصول على الوظيفة التّي يريد.

يستطيع الآباء والمعلّمون أن يساعدوا الأطفال الموهوبين على النظر إلى التقاليد من وجهة نظر أخرى، ربما من خلال مساعدتهم على فهم أصل هذه التقاليد وتاريخها. ويمكن للآباء أن يُظهروا تفهّمهم للطفل الموهوب الذي يريد أن يتحدّى العادات، ويساعدونه على إدراك بعض الحقائق الاجتماعيّة الأساسيّة. وعادة ما يميل الناس إلى تجنّب الأشخاص غير التقليديين؛ لأنّهم يشعرون بعدم الراحة معهم. فإذا أردت أن تكون غير تقليديّ، وتتحدّى الوضع الراهن، فإنّ سلوكاتك إذن ستكون غريبة بالنسبة للآخرين، وسيسعون إلى تجنّبك. وقد يعتقد بعض الناس أنّك تتعمّد أن تكون غير تقليدي لإظهار غضبك واستيائك. وقد يرونك سلبيًّا وساخرًا، وقد يخشونك، ويتجنّبون التعامل معك.

عندما يريد الطفل أن ينتهك تقليدًا ما ويترتّب على ذلك عواقب وخيمة، فإنّ سؤالاً صعبًا يبرز في الأفق. فمن المحتمل أنّه يريد تجربة شيء غير قانونيّ، أو ضارّ قد تكون له عواقب طويلة الأمد. ويتعيّن على الآباء ترتيب أولويّاتهم فيما يتعلّق بالإجراءات التّي سيتخذونها إن مارس الطفل هذا النوع من انتهاك التقاليد؛ لأنّ من غير الممكن أن يسمح الآباء لأطفالهم التعلّم من النتائج الطبيعيّة لتجربة بعض المواقف الخطرة التي قد تؤدّي إلى الموت.

المواجهة أم القيادة: إنّ معرفتك عن الأجيال السابقة والأيام الخوالي يمكن أن تساعد في جعل الأطفال يدركون أنّ التغيّر الإيجابيّ سيأتي فعلاً، على الرغم من أنّه لا يأتي دائمًا بالسرعة التّي تريدها، فالتغيّر يحصل معظم الأحيان نتيجة القيادة، لا نتيجة المواجهة الغاضبة. فمثلاً، لقد نجحت حركة الحقوق المدنيّة الأمريكية (1955-1968) The American Civil Rights Movement ، جزئيًّا، لأنّ قادتها أكّدوا على عدم العنف، واحتكموا إلى العقل لا إلى العواطف. وقد أرسِلت هذه الحركة رسالة بالكلمات والموسيقى، عنوانها: "عندي حلم" و"سوف ننتصر"، فانتشرت هذه الرسالة السلميّة وسُمعت.

وعلى الرغم من أنّ المواجهة قد تكون ضروريّة أحيانًا، مثل حالات الاحتجاجات الاجتماعيّة المتنوّعة، إلاّ أنّ المعارضة تجعل الناس الآخرين يتشبّثون بالمعتقدات التقليديّة، ويتعلّقون بها بشدّة. فعندما تحصل التغيّرات الاجتماعيّة بسرعة، يتعلّق الناس بطرقهم القديمة المألوفة لتجنّب الإزعاج الذي قد يسبّبه أيّ نوع من التغيّر.

يمكن أن يتعلّم الأطفال الموهوبون طرقًا للإقناع والبحث عن التغيّرات بأسلوب تدريجيّ بطريقة الخطوة- خطوة، بدلاً من الاندفاع وراء رغباتهم في التغيّر بانفعال شديد، مما يدفع الآخرين إلى الرّد؛ كي يؤكّدوا سلطتهم وسيطرتهم. ولا شك أن مثل هذه المثابرة الصبورة تكون صعبة عادةً على الكثير من الأطفال الموهوبين الذين يريدون أن يستبدلوا فورًا قيمهم بالتقاليد القديمة. ومع ذلك، يتعيّن عليهم أن يفهموا أنّ الكثير من التسرّع يؤدي بالآخرين إلى الغضب، والابتعاد عنهم، إلى درجة أن الطفل الموهوب سريعًا ما يجد نفسه وحيدًا ومعزولاً.

كن صادقًا مع نفسك: قد تشعر بالاستياء عندما تكتشف أن الناس قد ابتعدوا عنك، أو ربما قطعوا علاقتهم بك، بسبب معتقداتك. ولكنك تحتاج إلى الكثير من الشجاعة والثقة لتقبل مخاطرة الاستقلالية واتخاذ خيارات مختلفة عن خيارات زملائك. وإذا ما أقدمت على هذه الخطوة، فمن المحتمل ألاّ تعود علاقاتك بهؤلاء الأشخاص إلى ما كانت عليه سابقًا. إلاّ أنّه يتعيّن عليك أن تكون وفيًّا لمعتقداتك وقيمك، بدلاً من خضوعك السلبيّ لعادات تبدو لك كاذبة، أو غير مسئولة. فالطفل الموهوب الذي لاحظ تفشي الغشّ في مادة الإحصاء، مثلاً، قد يكون أكثر ارتياحًا إن اختار الصمت بدلاً من مواجهة رد فعل الطلاب المعادي الذي سينجم عن لفتِك انتباه المعلّم. وعندما يوجد طفل شجاع وفيٌّ لمعتقداته يقوم بالإبلاغ عن حالات الغش، فمن المؤكد أنه سيواجه غضبًا من الطلاّب الآخرين، ومن المحتمل أن تدوم هذه العواقب في علاقاته الشخصيّة بهم فترة طويلة.

وبناءً عليه، فإنّنا نتساءل: ما التوازن المطلوب بين التحدّي المباشر للتقاليد من جهة، والتكيّف مع التقاليد المتوارثة من جهة أخرى؟ إن الجواب عن ذلك ليس سهلاً. لقد قال الشاعر الإنجليزي ويليام شكسبير «كن أمينًا مع نفسك»، ولكن إيجاد التوازن بين تحدّي التقاليد والالتزام بها أمر صعب. وقد تستطيع إيجاد هذا التوازن إذا كانت علاقتك بطفلك تسمح بفرص مناقشة الأثمان والفوائد، والطرق الأقلّ تقلّبًا.

حدّد معتقداتك الخاصة: يتعيّن عليك أن تجيب عن الأسئلة التالية لتستطيع التعامل مع تمرّد طفلك على التقاليد: كيف تتعامل مع العادات والتقاليد؟ هل تتسامح مع تقاليد الآخرين، أم تتسرّع في الحكم والنقد؟ هل تفكّر مليًّا في عاداتك؟ هل تسيطر العادات على أيّامك، أم أنّ لديك خطة تأمليّة في الحياة؟ هل قِيَم طفلك فعلاً أسوء من قِيَمك، أم أنّها مختلفة فقط؟ هل تعامل طفلك باحترام، حتّى عندما لا توافق على سلوكاته أو زيّه أو لغته؟

ثمّة احتمال قويّ أن يكون لدى أطفال المراهقة وما قبل المراهقة آراء غير عاديّة، أو أن ينشغلوا بأنشطة تتعارض مع مفهومك للقيم والتقاليد. حاول أن تتذكّر بعض معتقداتك الشخصيّة عندما كنت مراهقًا، فربما كان بعضها غريبًا على تقاليد بيتك آنذاك. ولهذا، من المهم أن لا تنسَ أنّ هؤلاء الأطفال سيجرّبون اتّجاهات وسلوكات مختلفة عندما يبدؤون في اكتشاف ذواتهم.

حافظ على قنوات اتصال مفتوحة: يستطيع الآباء الذين عزّزوا علاقاتهم الجيّدة بأطفالهم في سنوات المدرسة الابتدائيّة التكوينيّة أن يحافظوا على هذه العلاقات، وعلى التواصل مع المراهقين الموهوبين، في الوقت الذي لا يستطيع آباء آخرون فعل ذلك. إنّ كل شيء نعرفه عن الأطفال الموهوبين يشير

إلى أهميّة التواصل، وبناء علاقات الثقة معهم لمساعدتهم على اجتياز سنوات المراهقة، وبداية الرشد. إن حفاظك على علاقات المحبّة مع أطفالك في سنوات المراهقة التّي يرجّح فيها أنّهم يريدون رفض التقاليد وتحدّيها، سوف يمكّنك من مساعدتهم على تعزيز شعورهم بالارتباط بالمجتمع والعائلة، وتغذية روح الإبداع لديهم. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فقد تستطيع حتى مساعدتهم في فهم أهميّة التقاليد والطقوس التّي من الممكن أن يشكّكوا فيها، أو يقلّلوا من أهميّتها مؤقّتًا، مثل لقاءات العائلة في أيّام العطل، أو مذكّرات الشكر المكتوبة.

من المحتمل أنّ يكون الأطفال الموهوبون نافذي البصيرة عند تحدّيهم القيم والمعتقدات والتقاليد، فغالبًا ما يلفت انتباههم نفاق الكبار وعدم ثباتهم. وقد تصبح هذه الأمور محور نقاش عندما يحاول طفلك إقناعك بأنّ وجهة نظره صحيحة. ستسمح علاقاتك القويّة بطفلك بمثل هذا النقاش المتبادل بطريقة لا يشعر فيها أيّ من الطرفين أنّه مهاجم شخصيًّا. وقد تساعدك ملاحظات طفلك على إعادة تقويم بعض المعتقدات والتقاليد والعادات بطريقة صحيّة، على الرغم من أنّها قد تكون مؤلمة أحيانًا.

التمرّد يمكن أن يدمّر العلاقات: يزيد الصراع على السلطة والنفوذ بين الآباء والأبناء من تحدّي التقاليد. وغالبًا ما يختار المراهقون الموهوبون، بحكم مقدرتهم الإبداعيّة الرائعة؛ أصدقاء مختلفين، وغير عاديين، ومن المحتمل أن يتمرّدوا في البيت أو المدرسة من وقت إلى آخر، وخاصّة إن وجِدت صراعات على النفوذ في أيّ من المكانين. فهم، مثلاً، قد يصبغون شعرهم، أو يلبسون ملابس مخجلة، أو يعتزلون عائلاتهم أو مجتمعهم، أو يجرّبون موادّ وسلوكات خطرة، أو يهدّدون بترك المدرسة، أو يعملون ذلك كلّه، حتّى أنّ بعضهم قد يعلن تمرده وعصيانه. وفي بعض الأحيان، قد يجرّب المراهقون والراشدون الصغار شيئًا؛ كي يستشعروا ردّة الفعل. إن مثل هذه السلوكات، رغم أنها غير تقليدية بالمعنى الإبداعي، تخيف الآباء وتقلقهم، خاصّة عندما يدركون أنّ الطفل يؤذي مستقبله الشخصيّ أكثر من إيذائه والديْه، أو الآخرين الذين يتمرّد عليهم. إلاّ أن من المهم ألاّ تكون ردّة فعل الآباء سريعة أو عنيفة؛ لأنّها حينئذٍ ستصعّد الصراع، وتؤدّي بالطفل إلى التمرّد بصورة أكبر. ولهذا، يستحسن التدخل أو أي نوع من العلاج، خاصة إذا كانت مثل هذه السلوكات تميل إلى الجنوح.

إنّ سنوات المراهقة هي سنوات انتهاك التقاليد: وكما قال «مارك توين»: «عندما كنت ولدًا في الرابعة عشرة من العمر، كان والدي جاهلاً جدًّا إلى درجة أنّني لا أطيق وجوده، لكنّني عندما أصبحت في الحادية والعشرين، كنت مندهشًا، كم تعلّم هذا العجوز في سبع سنوات!». وخلاصة القول هي أن حتّى أكثر المراهقين الموهوبين تمرّدًا ينضجون، ولكن حسب برنامجهم الزمني، لا برنامجنا نحن.

اكتشف الأدوار غير التقليديّة للنوع الاجتماعي (الجندر): ينتاب الآباء القلق عندما يتحدّى الأطفال، وأحيانًا يسخرون، من الأدوار التقليديّة للجنسين. لكن هذا السلوك من الأطفال يعكس سعة اهتمامهم وفضولهم. يكون الأطفال الموهوبون- من الجنسين كليْهما- مزدوجي الاهتمامات والاتّجاهات أكثر من الأطفال الآخرين، حيث تحبّ الفتيات الموهوبات «الأشياء البنّاتيّة» التقليديّة، لكنّها قد تستمتع أيضًا بالأشياء الصبيانيّة مثل، كرة القدم، أو الأنشطة الخشنة والقاسية المفتوحة. وبالطريقة نفسها، يميل الأولاد الموهوبون إلى اهتمامات واسعة مثل، الألعاب التخيليّة، أو الفنّ، أو الطبخ، إضافة إلى

"الأشياء الصبيانيّة" مثل، السيّارات، والدرّاجات، والمصارعة. وقد تؤدّي هذه االسلوكات إلى إحباط الآباء والأطفال على حدٍّ سواء. فعلى سبيل المثال، قد ينزعج الأب الرياضيّ، الذي يأمل أن يتبع ابنه خطاه، عندما يجد ابنه مهتمًّا في العزف على الكمان.

ونظرًا لأن بعض هذه الاهتمامات تنتهك الأنماط التقليديّة، يتعيّن على الكبار المؤثّرين أن يساعدوا الأطفال الموهوبين على التفكير في كيفيّة تحقيقها. هل سيختارون التعبير عن اهتماماتهم وقدراتهم في بعض المواقف وليس في غيرها؟ هل يريدون تحقيق بعض هذه الاهتمامات بصفتها خيارات وظيفيّة؟ هل سينصاعون للتوقّعات التقليدية؟ هل سيتمرّدون علانية وبشكل واضح؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة مهمة في تحديد المسار الذي سوف يتخذه الطفل الموهوب مستقبلاً، فعلى الرغم من التقدّم الكبير في مجال أدوار الجنسين، إلاّ أنه ما زال يصعُب على المرأة - في بعض المجتمعات- أن تصبح مديرًا تنفيذيًا، أو مديرًا لشركة، أو ضابط شرطة، ويصعب على الرجل أن يكون ممرّضًا. ولهذا، يتعيّن علينا بصفتنا آباء أن نشجّع أطفالنا الموهوبين على اختيار المهنة التّي تناسب اهتماماتهم ورغباتهم هم، وليس المهنة التّي نختارها لهم.

توقّع من طفلك أن يدرس تقاليد أخرى: تعدّ سنوات المراهقة وقتًا مناسبًا يستفيد فيه الأطفال الموهوبون من الحديث لشخص آخر غير الوالدين. وقد يكون الشخص المعنيّ والد صديق لهم، أو جارًا، أو معلّمًا، أو مرشدًا. ويبحث المراهقون عن أيّ نوع من الأشخاص يريدون أن يكونوا في المستقبل. لقد بدءوا يدركون أنّ آباءهم غير مثاليين، وأخذوا يبحثون عن آخرين كي يكونوا نماذج لهم. ومن غير المستبعد أن يقوّموا مستقبلاً بعض قوانين ومعتقدات وتقاليد آبائهم، ولكن يبدو أنّ المراهقين كلّهم ينتقدون آباءهم فترة من الوقت، ويتوقون إلى الانفصال عنهم؛ لذا ينصّح الآباء أن يتحلّوا بالمزيد من الصبر.

تفحّص تقاليد عائلتك: ما الطقوس والعادات والتقاليد التّي يُعرَف بها أهل بيتك؟ أيّ منها عرضيّ- تلك التي انتقلت من جيل إلى آخر دون دراسة وتفحّص؟ هل هي التقاليد التّي تريدها؟ إن لم تكن كذلك، ما التقاليد الجديدة التّي تسعى إليها؟ ما التقاليد المتوارثة التّي تحبّ أن ينقلها أطفالك إلى أطفالهم؟

إن إحدى التقاليد المفيدة هي عادة تفحّص التقاليد. قد يشارك أفراد العائلة كلّهم في دراسة التقاليد الحاليّة لعائلتهم، ومناقشتها، ثم الاتفاق على التقاليد التي سيحتفظون بها، أو التي سيلغونها أو يعدّلونها. تعدّ هذه الخطوة تمرينًا تنويريًّا لأطفالك الموهوبين، ويمكن أن يوضّح لهم إمكانيّة التخلّص من بعض عادات العائلة مثل، المماطلة أو الحكم على الآخرين، في حين تستحقّ تقاليد أخرى البقاء؛ لأنّها ذات قيمة ومعنى جليٍّ. إنّ أكثر الإنجازات التحرريّة لمثل هذه الدراسة والتمحيص هي أنك تكون قادرًا على إيجاد تقاليدك الجديدة الخاصّة، ويمكن لكلّ فرد في العائلة أن يشارك في تحديد، أو إعادة النظر في الأشياء الأكثر أهميّة بالنسبة لهم.

الخبرات المشتركة تغرس التقاليد

لا تنقل العائلات إلى أطفالها التشابهات الوراثيّة فحسب، بل تنقل أيضًا أهدافًا، وقيمًا، وتاريخًا وعادات وتقاليد. وتعدّ الخبرات المشتركة حلقة الوصل الأساسيّة للشعور بالارتباط بالآخرين، حيث تشعرنا هذه الخبرات أنّنا نشترك في قيم وتوقّعات أساسيّة، وأنّ عالمنا المباشر آمن ومرئي إلى حد كبير. كما تربطنا العادات والتقاليد المشتركة بثقافة أوسع، وتشعرنا بالأمن والانتماء.

وحيث أن معظم التقاليد تنشأ في العائلات والمجتمعات التّي نعيش فيها، فإنها تشكّل جزءًا من «جذورنا» أو إحساسنا بالانتماء. وتكوّن ذكريات الطفولة أساسًا يسمح للأطفال بالإقدام على المغامرة الأولية لتحدّي التقاليد. وكما يقول أحد الباحثين: "عندما يكبر الطفل، فإنه يمُدّ جذورًا جانبيّة بتعامله مع أناس آخرين من خلفيّات مختلفة. وهؤلاء بدورهم يوفّرون الأمن والشعور بالانتماء إلى مجموعة أوسع، والشعور بالاتحاد مع العالم"[٨]. يمكن أن يساعد آباء الأطفال الموهوبين أبناءهم على تعلّم تحدّي التقاليد بشكل آمن، وذلك بإيجاد بيئة يستطيع فيها كلّ من الأطفال والكبار اتّخاذ القرار بشأن التقاليد التي يسعون إلى المحافظة عليها، وتلك التي يريدون التخلّص منها. ويتطلّب هذا الكثير من الصبر والمثابرة والمرونة لمحاولة الإبقاء على استمراريّة العادات القديمة وقوّتها من جهة، والبحث عن طرق جديدة أفضل من السابقة من جهة أخرى. وعلى أية حال، قد يكون من المثير أن نفكّر في تقاليد جديدة يمكن أن تبقى لسنوات قليلة فقط ، أو ربّما لأجيال.

◇◇◇